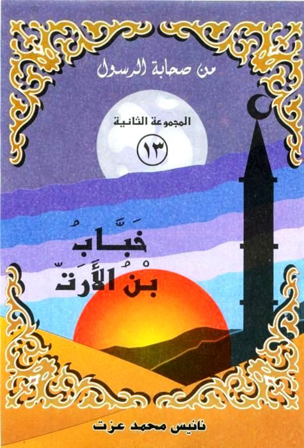

من صحابة الرسول
المجموعة الثانية
١٣
خَبَّابُ
بْنُ الأَرَتّ
ثانيس محمد عزت

خَبّابُ بنُ الأَرَتّ

رجَعَ إسْماعيلُ من النّادى مُرْهَقاً ، وارتَمَى على مَقعدٍ وَثيرٍ مُريح ، وقالَ لوالِدِه :

ـ قد تَعِبت ، فإنَّ التّدريبَ اليومَ كانَ شاقّاً .

ابتسمَ والِدُه وقال : اسْتِذكارُ الدُّروس شاقٌ مُمِلّ ، وتَدريباتُ السِّباحَةِ شاقّةٌ مُرهِقَة ، فما هو الشَّىْءُ الذى تَراهُ سَهلاً مُمتِعا ؟ الجُلوسُ على مَقعدٍ مُريح ، ومُشاهَدةُ التّليفزيون مِثلَ العَجائز ؟

قالَ إسْماعيل : لَمْ أقصِدْ ذلكَ يا أبى ، فأنا أُحِبُّ السِّباحَة ، ولكنَّ مُدرِّبَ السِّباحَةِ أهلَكَنا منَ التَّعَب ، فقد فرضَ علينا أن نَقطَعَ حَمّامَ السِّباحَةِ ذَهاباً وإياباً أكثَرَ من ثَلاثينَ مرَّة .

قالَ والِدُه : لا تَنسَ يا إسماعيلُ أنَّ بُطولَةَ الجُمهوريَّةِ على الأبْواب ، ويجبُ أن يكونَ فريقُ السِّباحَةِ على أتمِّ اسْتِعدادٍ لَها . أَينَ العَزيمَةُ والمُثابَرةُ وقوَّةُ التَّحمُّل ؟ فأنتَ تَستَصعِبُ السِّباحَةَ فى المِياهِ البارِدَةِ المُنعِشَة ، فى هذا الحرِّ اللافِح ، وتَعجَزُ عن تَحمُّلِها ، فما بالُكَ بمن كُوىَ بالنّيران ، وبالحَديدِ المُحمَى ، وسُحِبَ على وَجهِه فوقَ رِمالِ الصَّحراءِ المُلتهِبَة ، ومع ذلك صَبَرَ وتَحمَّل ، ولم يُظهِر الألَمَ لأعْدائه .

تعجَّب إسْماعيلُ وقال : أحقًّا هذا ؟ ومَن كانَ ذلِك ؟

تدخَّلت والِدةُ إسْماعِيلَ فى الحَديثِ فقالَت : إنَّه لم يكُنْ شَخصاً واحِداً يا إسْماعيل ، بل العَشَراتِ والعَشراتِ من الفُقَراءِ والعَبيدِ والضُّعَفاء ، الَّذين آمنوا بدَعوةِ مُحمَّد ــ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّم ــ ولم يَكنْ

لَديهم القُوَّةُ أو المَلجأُ الّذى يَحميهم من بَطشِ الكفّار . ولكن يَظهَرُ أنَّ والِدَكَ يَقصِدُ شَخْصاً بعَينِه ، فمن يا تُرَى الّذى يَقصِدُه ؟

قالَ والِدُه : نَعم ، فأنا أقْصِدُ الخَبّاب بنَ الأَرَتّ .

قالت والِدَتُه : حَقًّا ، فهو مِثالٌ فَريدٌ فى الفِداء والعَطاء .

قالَ إسْماعيل : ولكِنّى لا أعرِفُ قِصَّتَه ، فهل تَحكيها لى يا أبى ؟

قالَ والِدُه : نَعَم بكُلِّ سُرور ، فَحياةُ الخَبّابِ الأرتّ قُدوَةٌ يُحتذَى بها . فقد عاشَ الخَبّابُ حياةَ الرِّقِّ والعُبودِيَّةِ مُنذُ سَنَواتِهِ الأولَى ، حينَ أغارَ الأعداءُ على قَبيلَتِهِ بَنى تَميم ، وأخذوهُ بينَ السَّبايا ، وباعوهُ فى سوقِ الرَّقيقِ بمكّةَ - وكانَ لسوءِ حظِّهِ أن اشْتَرتهُ من السّوقِ أُمُّ أنْمارِ الخُزاعِيَّة . اشْتَرتْه لتَدفَعَهُ إلى العَمَل

وتَكسِبَ مِن ورائه . فدفعتْ به إلى أحَدِ الحَدَّادينَ ليتعلَّم منه صِناعَةَ السُّيوف ، وهى تِجارَةٌ رائجَة ، لم يكن يَستغنِى عنها الرِّجالُ أو الشَّبابُ عندَ خُروجِهم للصَّيدِ أو للقِتال ، فهىَ حِرفَةٌ تُدِرُّ على صاحِبِها المالَ الوَفير .

وحينَ بلغَ خبّابٌ سِنَّ الشَّباب ، واشْتَدَّ عودُه ، وأتْقنَ صِناعَةَ السُّيوف ، اسْتأجَرت له أمُّ أنْمارٍ دُكّاناً يعمَلُ فيه ، وكانَت تُرهِقُهُ دائماً بطلبِ الدَّراهِم .

وأقبلَ النّاسُ على شِراءِ السُّيوفِ مِنَ الخَبّاب ، وذلك لمهارَتِهِ فى صُنْعِها ، ولِما كانَ يَتحلَّى به من أمانَةٍ وصِدقٍ وإخْلاص .

وظلَّ خَبّابٌ على تلكَ الحالَة ، يقِفُ أمامَ الكورِ يُشعِلُ النّارَ بنَفسِه ، ثم يُدخِلُ الحَديدَ فى النّار فيَنْصَهِرُ

ويُصبحُ عَجِينَةً لَيِّنةً فى يَدِه ، يُشكِّلُها كيفَ يَشاء ، مدَّةَ سَنتَين أو أكثر .

إلَى أنْ سطعَ النورُ فى مَكّةَ فجأة ، وراحَ النّاسُ يتناقلونَ خبرَ الرِّسالَة الَّتى جاءَ بها مُحمَّدُ بنُ عَبدِ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ فأشرقَ فؤادُ الخبَّاب ، وانْشرحَ صَدرُهُ لمبادئ الدّين الجديد السَّمحَة ، فأسرعَ إلى مُحمَّدٍ ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ يُعلنُ إسْلامَه .

سألَ إسْماعيل : أكانَ خبّابٌ من المُسلِمينَ الأوائل ؟

قالتْ والِدَةُ إسْماعيل : نعم ، بلْ كانَ منَ العَشَرةِ الأوائلِ الَّذينَ دَخلوا فى الإسْلام .

وقيلَ إنّ ترتيبَه فيهم هو السّادِس ، إذْ أسلمَ قبلَ أن يتَّخذَ الرَّسولُ ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ وأصحابُه ، دارَ الأرقمِ مَقرًّا لهم .

قالَ والِدُه : صَدقْتِ ، ولَمْ يَكتفِ الخبّابُ بإسْلامِه ، بل أعلنَهُ وأظهرَه على المَلأ ، برَغْمِ عِلمِهِ بما سَيُلاقيهِ من أشَدِّ أنواعِ العَذابِ والتّنكيل ، فلمْ يكن يشغَلُ بالَه عِندئذٍ إلاّ النّورُ الّذى ملأ قلبَه . وعلِمتْ أمُّ أنمارٍ بإسْلامِه ، فاسْتَشاطتْ غَضَباً ، وواجَهتْه هِىَ وأخوها « سَبّاعُ بنُ عبدِ العُزّى » . وبَعضُ فِتيانِ خُزاعَة . وسألَه سَبّاع :

ـ يُشاعُ أنّكَ صَبأتَ وتَبعتَ غُلامَ بنى هاشِم .

فردَّ عليهِ خبّابٌ فى هُدوء : ما صَبأتُ وإنّما آمَنتُ باللّهِ وحدَهُ لا شَريكَ له ، وتَركتُ عِبادَةَ أصْنامِكُم ، وشَهِدتُ أنّ مُحمَّداً عبدُ اللّهِ ورَسولُه .

وكانتْ كلِماتُ خبّابٍ بمَثابَةِ الضّوءِ الأخضَرِ لسَبّاعٍ ومن مَعَه ، فانهالوا على خبّابٍ ضَرباً ورَكلا ، وقذَفوه

بما وَصلت إليه أيْديهم من مَطارِقَ وقِطعِ الحَديد ، حتّى هوَى على الأرض ، وسقَطَ مُغشياً عَليه .

وهكذا ضربَ خبّابٌ لنا أفضَل مِثال للصّبر والجَلَد وقُوَّةِ التّحمُّل ، وصَلابَةِ العَزيمَةِ وصدق الإيمان بالله .

فقد تَفنّنتْ أمُّ أنمار وأخوها سِبَاعٌ في تعذيب الخبّاب ، فكَووه بأسْياخِ الحَديدِ المُحماة ، وألْبسوهُ دُروعَ الحَديد ، وصَهروهُ في حَرارَةِ الشَّمسِ الحامِيَة .

وأكثَرَ من ذلكَ أنهم حَمَوا الحِجارَةَ بالنّار ، وألصقوها بظَهرِهِ العاري حتّى ذهَبَ لَحمُه .

قال إسْماعيلُ مُشمئزًا : كفَى يا أبي أرْجوك . إنَّ ما تَصِفُهُ من ألوان العَذاب لا يُحتَمل . فكيفَ يَستَطيعُ إنسانٌ أن يتحمَّلَ كلَّ هذا العَذاب ؟

قال والِدُه : لقد تحمَّلهُ الخبّابُ بصَبرٍ وجَلَد . فطالَما حاولَ جلّادوهُ انتزاعَ كلمَةٍ منه تَنصُرُ آلهَتهُم ، حتَّى إذا اشتدَّ به العَذابُ سألوه : ماذا تقولُ فى مُحمَّد ؟

أجاب : هو عَبدُ اللّهِ ورَسولهُ ، جاءَنا بدينِ الهُدَى والحَق ليخرجَنا منَ الظُّلماتِ إلى النّور .

فيستمرّونَ فى تَعذيبه ويعاودون سُؤاله : وماذا تقولُ فى اللاّتِ والعُزَّى ؟

كانَ ردُّهُ : صَنمان أصَمّان أبكَمان ، لا يَضُرّانِ ولا يَنفعان .

فلم يزدْهُم ردُّه إلاّ غَضبًا ، واستَمرّوا فى تَعذيبه بما لا طاقةَ للبشَرِ أن يحتمِلَه .

ولم تكن أمُّ أنمار أفضلَ من أخيها سَبّاع ، فكانت تَحمى قِطعَ الحَديدِ فى الموقِدِ الّذى يعملُ عليه خبّاب ، وتَضعُها على رأسه حتّى يُغمَى عليه .

فإذا رآهُ الرَّسولُ ــ صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم ـ كذلِك ، أسِفَ لحالِه ، فلم يكُن يَملكُ أن يَمنـعَ عنـهُ العـذاب ، ورفع كفَّيْهِ إلى السَّماء ودَعا له : اللَّهمَّ انصُر خَبَّابا .

وشاءَ اللَّهُ فلم تَمض إلاّ بضعَةُ أيّام ، حتَّى أُصيبَتْ أُمُّ أنْمارٍ بسُعار ، جَعلَها تَعوى مِثلَ الكلاب ، وقيلَ لها إنّه لا عِلاجَ لها إلاّ أن يُكوَى رأسُها بالنّار .

وهكذَا شَربتْ من نفْسِ الكَأسِ الّتى طالَمـا سَقتْها لخَباب ، وقاسَى رأسُـها آلامَ الحَديـدِ الـمُحمى ، إذا أصْبحَتْ وإذا أمْسَت .

قالَ إسْماعيل : أحْسَن ! إنّها تَستحقُّ ذلك وأكثَر ، فإنَّ اللَّهَ يُمهلُ ولا يُهمِل ، ولعلَّ النّارَ تُذيبُ عَقلَها الـمُتحجِّر .

وماذا عن أخيها سبّاع ؟ ماذا كانَ من أمْرِه ؟

قال والِدُه : أخذَ حمزةُ بنُ عبـدِ المُطَّلب بثأرِ خبّـابٍ من سبّاع ، فعاجَلَهُ بضَربَة قاتِلَة ، قضتْ عليه يومَ أُحُد .

قالُ إسْماعيل : حَمْدا لِلّه ، فقد نالَ كـلٌّ مِنهُمـا مـا يَستحِقُّ من عِقاب .

قال والدُه : ورغمَ ما لِقيَه خبّابٌ من عَـذاب ، كـانَ دائماً حريصاً على حُضورِ مَجالِسِ الرَّسـول ــ صلّى اللّهُ عليه وسَلَّم ــ وحِفظِ ما يَنزِلُ عليه من القُرآنِ أوَّلاً بـأوّل ، ودِراسـةِ كـلِّ مـا يَتعلّقُ بـالدّين . كمـا كـانَ حَريصاً على نَشرِ الدّين وتَعليمِ إخْوانِه منَ المُستَضعَفين ، الذّين كانوا يَكتُمون إسْلامَهم خوفاً من بطشِ قُريْش ، فكـان يذهـبُ إليهـم فـى بُيوتهـم ويُعلّمهـم القـرآن .. أتَعلمُ يا إسْـماعيلُ أن كـان لِخَبّـابٍ الفضـلُ فـى إسْلامِ الفاروقِ عُمرَ بنِ الخطّاب ؟

قالَ إسْماعيل : كيفَ ذلـكَ يـا أبى ؟ كيـفَ لِذلـكَ العَبدِ الضَّعيف أن يصِلَ لعُمَرَ بقُوّتـه وجَبَروتـه ؟ أو لَـم يَكفِهِ ما لَقِيَه من عَذاب ؟

ابتسمَ والِده وقال : إنَّ لذلك قِصَّة . فبينَما كان الخَبابُ ذات مَرَّة عِندَ فاطِمةَ أُختِ عُمَر ، إذ حَضر عُمرُ مُتقلِّداً سيفَه ، وهو يَنوى الشَّرَّ بأُختِهِ وزَوجِها ، حيث سَمِعَ أنهما تَركا دينَهما واعتنَقا الإسلام . فعِندَما كان بالباب ، سمِعَ صوتَ الخبّابِ وهو يَتلو القُرآن ، فتأثَّر بعُذوبَةِ صَوتِه ، وعظَمَةِ ما سَمِع .

وما أن خَطا داخِلَ البَيت حتَّى اختفَى الخبّاب . وحاولَ عُمرُ أن يأخُذَ الصَّحيفَةَ من يَد أُختِه ، ولكنَّها منَعَته وقالَت : يا أخى إنَّك نجسٌ على شِركِك ، وهذه الصَّحيفَةُ لا يَمَسُّها إلاّ المُطهَّرون .

فاغْتَسل عُمَرُ وتَطهَّر ، وما أنْ قرأ سورَةَ طه حتَّى لانت سَريرَتُه ، وقال : دلُّونى على مُحمَّد .

هنا ظهرَ الخبّابُ وقال : واللهِ يا عُمَر ، إنى لأرْجو أن يكونَ اللهُ قد خصَّكَ بدَعوة نبيِّه ـ صلَّى اللهُ عليه

وسَلَّم ـ فقد سَمِعتُهُ أمسِ يَقول : اللَّهُمَّ أَيِّدِ الإسْلامَ بأبى الحكم بن هِشام ، أو بعُمَـرَ بـنِ الـخطَّاب . وقـد كانَ إسْلامُ عُمرَ مكْسَباً عَظيمـاً للإسْلام ، لا يَسـتَطيعُ أحدٌ أن يُنكِرَه .

* * *

وهاجرَ خبّابٌ إلى المدينَةِ مـع أقرانِـهِ مِـنَ الـمُسلِمينَ الـمُستَضعَفين . وفى الـمَدينَةِ ذاقوا طعمَ الرّاحَـةِ لأوّلِ مَرَّة ، مُنذُ دَهرٍ طَويل .

وشهِدَ خبّابٌ جَميعَ الغَزَواتِ مع الرَّسـول ـــ صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم ـــ فكانَ ناراً ألهبتْ من أذاقوهُ لَهيبَهـا ، وكان سَوطاً سَلَّطَهُ اللَّه على مَن أذاقوه ضَربَ السِّياط .

ومدَّ اللَّهُ فى عُمـرِ خبَّـاب ، فعـاصرَ جميـعَ الـخُلفاءِ الرّاشدين ، وعاشَ فى رِعايتهم ، جليلَ القَدرِ نابهَ الذِّكْر .

هنا قالت والدَة إسماعيلَ لوالده : لقد قصصت علَيه جانب الفِداء فى حَياةِ الـخَبَّاب ، فلا تَنسَ أن تقُصَّ عليه جانِبَ العَطاء والجود .

قال والِـدُه : وكيف نَنسى أنّ خَبّاباً اتّصف بأنّـهُ أُسطورَةُ فِداء وعَطاء ، فاسْمَعْ يا وَلدى !

اغْتنَى خَبّابٌ فى الشَّطرِ الأخيرِ من حَياتِه بعد فَقْـر ، وملكَ مالم يكُنْ يَحلُمُ بهِ من الذّهبِ والفِضّـة ، فـانظُرا ماذا كانَ من أمرِه . وضَعَ كـلَّ مَـا يَملِـكُ مـن دراهِـمَ ودَنانيرَ فى مَوضعٍ من بَيْتِه يَعرِفُـهُ الـمُحتاجونَ ، كمـا يَعرفُـهُ الفُقَـراءُ والـمَساكين ، فكـانوا يـأْتونَ إلى دارِهِ ويأخُذونَ ما يُريدون ، دون سُؤالٍ أواسْتِئذان .

قالَ إسْماعيلُ مُندهشا ؟ أيُعقلُ هذا ؟

قالَ والِدُه : ومعَ ذلك نَجدُهُ يومَ وفاتِه ، خائفاً أن يكونَ اللّهُ قد عجَّلَ له بثَوابِهِ فى الدُّنيا ، عن ثَوابه فى الآخِرة .

ولقِيَ خبّابٌ وجهَ ربّه فـي السّنةِ السّابعَةِ والثّلاثينَ للهجرة . وحينَ مرَّ عليُّ بنُ أبى طالِب بقَبرِه ، دَعا قائلاً : رَحِمَ اللّه خبّابا ، أسلَمَ راغبا ، وهـاجر طائعا ، وعاشَ مُجاهِدا ، وابتُلِيَ فى جِسمِهِ أهْوالا ، ولن يُضيعَ اللّهُ أجرَ من أحسَنَ عمَلا .

قـالَ إسْـماعيل : إنّـهُ مثـال حـيٌّ لقُـوّةِ التّحمُّـلِ والـمُثابَرة . فيا لِلفِداءِ ويا لِلتّضحِيَةِ !

قـالت والِدَتـه : لَيسَ وحدَه يـا وَلَـدى ، بـل مَعَـهُ العَشراتُ والمِئاتُ منَ الـمُستَضعَفينَ الّذين تحمَّلوا الذُّلَّ والهَوان ، حتـى وصـلَ بهـمُ الإسْلامُ إلى بَرِّ الأمـان . فلولا صبرُهم وجَلَدُهم وتَحمُّلهم الـمَشاق ، ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه فى خدمَةِ الإسْلام .

قال إسْماعيل : شكرًا لـخبّاب ، ولِـمَنْ مَعه مـنَ الصَّحابَة .